مصر فى تاريخ النحو

بقلم السيد أحمد خليل

لاشك فى أن الحضارات العالمية التى تعتز بها الانسانية فى حاضرها والتى امتدت أعماقها الى فجر التاريخ أو مايقرب من فجره قد شاركت فى بنائها شعوب مختلفة . وأجناس متعددة ولعل ذلك مرده الى أن من أصول هذه الحضارات مايكاد يكون متاعا مشتركا بين شعوب جمعتها أهداف مشتركة سعت جميعها اليها مؤمنة بها راغبة فى تحقيقها على نحو ما — والحضارة العربية احدى هذه الحضارات التى أسهمت فى بنائها جملة من هذه الشعوب حتى برزت شخصيتها واضحة قوية ملهمة ومتجددة على مر الأعصر وامتداد الزمن ومهمة البحث العلمى — فى نشأة هذه الحضارات وتطورها أن يبرز — فى يقظة وأمانة — لا تعرف عصبية فى الجنس أو الدين أثر هذه الشعوب فى بناء هذه الحضارة ومقدار ما أدته اليها . والواقع أن هذه الحضارة قد عملت فى بنائها شعوب متعددة كان لكل منها ثقافته الخاصة وطابعه المميز وفلسفته المتعمقة الباحثة عن أصول المعرفة الانسانية وصلتها بالوجود وعلاقتها بالله ثم جاء الاسلام فجمع هذه الشعوب وآخى بينها ودفعها الى التماس المعرفة عن طريق صفاء النفس وتهذيب الروح وتنظيم وسائل العيش وتقوية المعنويات الموروثة متى اتفقت فى جوهرها ومايدعو اليه الدين الجديد .

ومنذ نزل القرآن على الرسول والعربية قد أصبحت لغة الدين والقرآن استطاعت أن تقهر تلك اللغات التى كانت شائعة فى هذه الأقطار فأمست لغة الدولة الحاكمة ولغة الشاعر الذى يسجل فى شعره أحاسيس نفسه وانفعالاتها كما أصبحت لغة الكاتب والمؤلف والمشرع ومن هنا — كان لابد من استقرار قواعد هذه اللغة حتى يصبح تعلمها أمرا ميسورا لهذه الشعوب فظهر النحو العربى يقيم الألسنة ويعين على تفهم النص ويقدم للمشرع وسيلة من أنجح الوسائل وأقواها فى الاستنباط الفقهى والحق — أن البحث عن أولية النحو

العربى ــ تعددت فيه الآراء وتباينت فى الكشف عنها مسالك النظر وبالرغم من تطور البحث اللغوى ــ فى عصرنا الحاضر تطورا ملحوظا فان هذه المسألة ما تزال موضع جدل بين الدارسين وتظلن لم يدفعة الى اليقين أو مايشبهه أدلة من ماديات التاريخ التى يكشف عنها البحث العلمى المتجدد كل يوم .

وربما كان ذلك ــ لأن الدارسين وقفوا جهودهم جميعا على محاولة تصنيف اللغات وتقسيمها الى فصائل مستلهمين هذه الكشوف العلمية مايؤكد نظرتهم الى هذا التقسيم وطريقتهم فيه ثم اتجهوا بعد ذلك الى البحث عن نحو هذه اللغات بعد أن تحقق لهم شئ مما جعلوه غاية لدراساتهم من الصلات بين أجناس هذه اللغات وفصائلها ومما سموه بالنحو المقارن Comparative Grammar على نحو ما صنع دارسوا الأدب مما سموه بالأدب المقارن لكن هذا الصنيع لم يحقق لهم الأمل الذى حاولوا الوصول اليه من معرفة نشأة نحو هذه اللغات وكيف تطور ، والنحو العربى أحد هذه الانحاء التى مازال البحث عن أوليتها مجالا واسعاً للقول ، ولا ريب فى أن اتساع الدراسة اللغوية ونموها قد يعين على تحديد هذه الأولية ويكشف عن الملابسات التى احتفت بها ويمهد السبيل الى دراسة أوسع مما اعتاد الدارسون العرب أن يقفوا عنده لا يبرحونه الا يسيرا . وقد تعين الرواية التاريخية التى أجمع عليها المؤرخون المنصفون على مايؤكد القول فى هذه النشأة ويلقى عليها بعض النور الذى يحدد معالمها تحديدا أقرب الى الدقة وأبعد عن التردد ... فاذا ماعرضنا لتاريخ الشرق القديم والى فتح الاسكندر له ــ والى ما كان ــ من ظهور الفكر اليونانى قويا مشعا ملهما ــ والى انتشار هذا الفكر فى كل مكان من الأرض سعت عليه أقدام هذا الفاتح ــ عرفنا أن فلاسفة اليونان الذين صحبوا هذا الفاتح فى رحلاته قد دهشوا حين رأوا من تقدم الهند فى الدرس اللغوى وتعمقهم فيه واصالتهم فى البحث عن صفاء التعبير وقوته بل انهم فى تعمقهم قد بحثوا عن الكلمات القديمة والشعرية والكلمات التى تخلفت حياتها عن مسايرة الزمن فاتت .

كل ذلك يؤكده الدارسون فى غير تحفظ ويدعون فى شدة الى دراسة اللغة السنسكريتية . اذ أن فى دراستها ما قد يكشف لهم عن معالم الطريق فى معرفة

نشأة هذه الدوحة اللغوية التى يسمونها Indo-european . قد يكون للدارسين الغربيين — بعض العذر فى الاتجاه الى دراسة هذه اللغة دراسة تاريخية تكشف عن آثارها فى لغاتهم الحية التى يتكلمون بها اليوم والتى أصبحت جزءا من كيانهم الحيوى الذى يعيشون عليه ويلتمسون له القوة ليخلد مع التاريخ أما نحن فلا عذر لنا فى أن نقف عند دراسة هذا الجانب وأن نقنع من دراستنا بما نحن فيه وندع أمر ماضينا لسوانا يبحث لنا عنه ويلتمس وحده السبيل اليه .

حقا أن التاريخ الأدبى : وعى بعض الروايات الدالة على أن العربى فى جزيرته كان يحس احساسا قويا ببعض الفروق فى التعبيرات التى امتازت بها لغته وقد دارت بين شعرائهم مساجلات حول هذه الخصائص فمن ذلك ما يروونه حول هذا البيت : لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى .. الى آخره . لكن لم يع هذا التاريخ انهم اتجهوا فى باديتهم الى استقراء القواعد الخاصة بهذه اللغة إذ لم تكن ثمة حاجة تدفعهم الى هذا العمل ... فلم يكن العربى محكوما بقواعد أو ملتزما بمنهج خاص فى البيان والتعبير وانما كانت له الحرية فى إطار لهجة قبيلته الخاصة التى يعيش فيها ومن هنا اختلفت لهجات القبائل ونزل القرآن فأكد هذا الاختلاف أول أمره وأباح الله للعرب أن يقرأوا القرآن على سبعة أحرف على نحو مايذكره مؤرخو القرآن : وان كانت هذه الاباحة لم يمد لها فى العمر الا سنوات يسيرة ثم اقتضت طبيعة الحياة الاسلامية أن يجمع الناس على حرف واحد تأكيدا للوحدة الجامعة بين المسلمين وتوثيقا لعرى الاخاء فى الدين والتفكير والعمل بينهم .

والواقع — أن القرآن — بعربيته الأصيلة وتمثيله القوى للهجات العربية التى كانت شائعة بين العرب يمثل مرحلة جديدة من مراحل تطور حياة هذه اللغة ... فقد جمع القرآن بين العرب ووحد لغتهم ونمى روابط الاخاء والألفة بين جموعهم كما أنه كان العامل الأول — فى جمع كلمة المسلمين مهما تباينت أجناسهم وتعددت ثقافاتهم واختلفت مناهجهم فى مقومات الفكر والسياسة والاجتماع ... ومن هنا دارت الأبحاث اللغوية كلها حوله .

ويبدو أن هذه الظاهرة لم تكن خاصة بالقرآن وحده بل أنها لابست حياة الكتب الدينية أو التى اختصها أصحابها بما يقرب من القداسة الدينية على نحو مايقرره الدارسون لحياة الكتب الدينية القديمة ولا شك أن هناك وجوها من المشابهة بين بعض ظواهر من حياة هذه الكتب ـ توحى بشىء من الدراسة المقارنة ولو من وجهة نظر التاريخ فقد يمهد هذا النوع من الدراسة الطريق لمعرفة كيف بدأ الدرس اللغوى عند العرب وتدرج بل قد يعين ذلك على تحديد بواعث وأسباب هذا التطور السريع الباكر فى حياة هذه الألوان من الدراسة ولا سبيل إلى هذه الدراسة المقارنة بغير السند التاريخى الذى تتوافر فيه الثقة فمهما بلغ التظنن والحدس فلن يصل إلى شىء من الحق الذى يطمئن اليه قلب الدارس ويرضى عنه عقله وتذعن له حاسة التاريخ المنصف عنده وإذا كان الأمر على ماقدمت فلنعد إلى التاريخ فهو سند هذه الدراسة وهو صاحب القول الأول والأخير فيها ...

لدينا ثلاث حضارات قديمة جذبت اليها عناية الدارسين فى عصرنا الحاضر منها الحضارة اليونانية إذ أنها الحضارة التى استطاعت أن تقوم مناهج التفكير والتفلسف وأن تجمع إلى ذلك التفكير فى ماديات الحياة التى يستقيم بها سيرها على مدى الزمن وهى الحضارة التى كان للأدب فيها نصيب موفور ومنها الحضارة الهندية إذ أنها تشترك مع الحضارة اليونانية فى تكوين العقل الأوربى وتوجيه تفكيره وامداده بوسائل التعبير عن ذاته وثالثتهما الحضارة المصرية القديمة أو بعبارة أشمل حضارة الشرق الأدنى القديم على العموم .

هذه هى الحضارات الثلاث التى ينبغى ان يتجه اليها الدارس ليدرك مدى ما تركته من أثر فى حاضره الذى يعيش عليه . . ولا شك أن هذه الحضارات الثلاث قد خلفت وراءها كتبا ذات طابعين : طابع أدبى وطابع دينى وقد كان لهذه الكتب أثرها القوى فى توجيه أصحابها الى التفلسف الذى يحاول أن يحل مشكلة أصل الوجود وعلاقته بعلته الأولى ونحن لا يعنينا هذا الجانب من هذه الحضارات بقدر ما يعنينا البحث فى طبيعة الكتب الدينية وتاريخها ومدى ما تركته من أثر فى معنويات

أصحابها ومقرراتهم فى الفكر والاجتماع وما لهذا كله من أثر فى مناهج دراساتهم اللغوية باعتبار أن اللغة هى وعاء هذه الحضارات التى خلدتها على الزمن وأبقت أثرها على مر التاريخ وقد يطول بنا عرض الفكرة . . مما يبعدنا عن القصد الذى اليه أردنا فى الحديث عن مصر فى تاريخ النحو العربى غير أن مما تقضى به الأمانة العلمية ان أردنا أن ندل على ما أضافته مصر — الى هذا البناء الضخم فى تاريخ العربية أن نعود الى القول فى نشأة النحو العربى وكيف تدرجت حياته واختلفت مدارسه باختلاف مناهج أصحابها .

ولقد أشرنا من قبل الى أن الدراسة المقارنة قد تلقى بعض النور على نشأة النحوالعربى كما أشرنا أيضا الى ان اتصال حياة هذا النحو بالقرآن قد تعين على نجاح هذه الدراسات المقارنة . والحق أن البحث المقارن يقتضى أن نعود به الى أعماق التاريخ لنرى ماذا كان فيه مما يؤدى بنا الى الهدف الذى نقصده . ويصل بنا الى الغاية التى نسعى اليها . . وليس ما نرجوه بدعا ننفرد به فلقد أحست الإنسانية فى تطورها المعاصر ضرورة هذه الدراسة ومدى نفعها فى تعمق الدرس اللغوى واصالته ولقد صور هذا الجانب تصويراً دقيقا Gesperson[1]

اذ يقول ما ترجمته " أن القرن العشرين قد شهد نمواً هائلا وتطورا كبيرا فى علم اللغة الذى أبرز كثيرا من الملامح التى كانت مجهولة تماما للقرون الماضيه فلقد اتسع أفقه فدرس كثير من اللغات كما وصفت وصفا دقيقا وبعضها درس وان لم يكن له من الآثار الأدبية ما يشجع على دراسته وفى كل مكان عمق النظر فى تكوين اللغات وبنائها كما لو كانت موضع دراسة طويلة منذ أمد طويل ولقد صنفت اللغات تصنيفا يدل على الفهم وقوة الوعى بما كان بينها من الصلات الوثيقة المشتركة وفى الوقت ذاته لم يقف العمل اللغوى عند دراسة الصيغ وصفا وتحليلا بل تعداها

(1) Gesperson : Language : Its nature, development and origin pp 32—33

الى الشرح والبيان وإلى تعقب نشأتها وتطورها مع الزمن كلما أدنت بذلك الأسانيد التاريخية وبدلا من القناعة بهذه الصورة أو بتلك ومتى وأين وجدت ومتى ظهرت واستخدمت فقد انطلق علم اللغة يسأل لماذا أخذت هذه الصيغة ذلك الشكل النهائى ؟ . وهكذا انتقل علم اللغة من مرحلة الوصف الى مرحلة الشرح والتعليل . والجديد الأصيل الذى امتاز به مطلع القرن العشرين فى علم اللغة هو هذه النظرة التاريخية وعلى العموم فانه يجب أن يقال أن القرن العشرين قد اختص بأنه بدأ يطبق التاريخية على الآثار العلمية والأدبية الأخرى أكثر من تطبيقه اياها على الحروب وانهيار الأسر الحاكمة وهكذا اتجه هذا القرن الى هذه النظرة التاريخية ليكتشف فكرة التطور أو التدرج كما هى متحكمة فى الكون كله ولقد أنتج هذا كله تغييرا عظيما فى حياة علم اللغة كما أحدث أثره فى تاريخ المعارف الأخرى فلم يعد الدارس اللغوى ينظر الى اللغة اللاتينية مثلا على أنها شيء محدد بل أنشأ ينظر الى كل من هذه اللغات على أنها تمر فى عملية نسج مستمرة نامية متحركة دائمة التجدد والتغير . هذا هو الاتجاه العام فى دراسة اللغات ولكن يبدوا أن هناك بواعث أخرى أدت الى هذا الاتجاه وحملت الدارسين عليه وربما كان للكشف العلمى أثره الأول فى هذه الناحية ويزيد ذلك تأكيدا ما يذكره Gesperson تعليلا لهذا الاتجاه اذ يقول ما ترجمته " وغالبا ما يقال أن اكتشاف اللغة السنسكريتية كان نقطة التحول فى تاريخ علم اللغة وانه ليوجد بعض الحق فيما يقال عن هذا الاكتشاف بالرغم من أننا سوف نرى فيما بعد ان السنسكريتية لم تكن هى بذاتها التى أعطت دارسيها النظر الصحيح فى جوهر اللغات وعلم اللغة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان العبقرية قد أعانت على الأقل الانسان على أن يضع يديه على الحقائق الأولى حول الصلات القائمة بين اللغات وتطورها حتى وان لم يعرف السنسكريتية" هذا ما يراه Gesperson وان كنا نخالفه أشد المخالفة ونرى أن اكتشاف السنسكريتية قد أدى الى تطور علم اللغة نفعا جليلا بل انه مهد للباحث الطريق التاريخى الذى مر به تطور هذا العلم منذ بداية التاريخ حتى العصر الذى نعيش فيه . .

وقد التمس " جسبرسون " لنفسه بعض العذر فيما قرره بعد ذلك من أن اكتشاف الهند أو على الأصح اكتشاف معنوياتها جاء متأخرا .

أما نحن فنرى ان الحديث عن الهند هو بداية الطريق فى تفسير بعض الظواهر اللغوية التى عرفتها هذه البقعة من الأرض .

المعروف ان للهند كتابا دينيا وأن هذا الكتاب كان له فى نفوسهم من التقديس والاجلال ما يصوره أدق تصوير البيرونى فى كتابه تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة وقد بلغ من تقديسهم إياه أن الذى كان يقوم على تفسيره وتأويل اشاراته طائفة خاصة منهم كما أنهم قالوا باعجازه واختلفوا فى تقرير هذا الاعجاز على النحو الذى اختلف عليه العرب فى تقرير اعجاز القرآن أهو بالصرفة أم بسواها من خصائص فى النظم اقتضت هذا الاعجاز ويبدو أن القول باعجازه كما يقرر ذلك (البيرونى) هو الذى نمى هذه الدراسة اللغوية عندهم ونفخ فيها وجعلها أنواعا مختلفة كل منها يخدم ناحية خاصة من نواحى هذا الاعجاز ويبدو أن النحو فى تاريخ الكتاب الدينى عند الهنود كان أسبق ألوان هذه الدراسات وجودا واكثرها صلة بهذا الكتاب وأبلغها أثرا فيه فقد أشار الدارسون إلى أن Panini فى القرن الخامس قبل الميلاد ترك كتابا فى النحو الهندى وان هذا الكتاب امتزجت فيه الدراسات اللغوية بشىء من النظر وهو عمل فى طبيعة وجوده وتكوينه يشبه ما عمله سيبويه فى الكتاب. على ما بين الرجلين من فرق ينبغى أن يكون له حسابه فى الحكم على صنيعهما .

تلك هى الظروف التى لابست واحتكت فى نشأة البحث اللغوى عند الهنود وهى ظروف يمكن تركيزها حول البحث فى ظاهرة الاعجاز التى امتاز بها الكتاب الدينى عندهم يضاف اليها أن كتاب Vede كتاب منظوم وأن الحرص على سلامة نظمه عند القراءة والترتيل الدينى اقتضى البحث

عندهم فيا يسمى بالعروض Prosody كما دفع هذا كله الى البحث فى أصول وضع المعجم اللغوى الذى يعين مفسر الكتاب ومتأول نصوصه على صحة التأويل وسلامة الاستنباط .

وإذن فقد دارت الدراسات اللغوية عند الهنود حول كتابهم ويبدو أن هذه الظاهرة هي التى دفعت اليونان — الى العناية بكتابهم — على نحو ماصنع الهنود بكتابهم ، ومن هنا بدأت الدراسات اللغوية والفنية تدور كلها أول الأمر حول الالياذة وقد استطاع أن يصور طرفا من هذه العناية Rose [١] ومما لا حاجة الى نقله هنا — فقد أشرنا الى جملة منه فى بحث غير هذا غير أن عناية اليونان بكتابهم لم تصل الى غاية ما وصلت اليه عند الهنود وذلك لاختلاف طبيعة الكتابين وصلته بأهله ولعل مما يصور ذلك تصويرا قريبا من الدقة ما يذكره كتاب الهند القديمة وحضارتها [٢] إذ يقول أن الهنود ربطوا بين معتقداتهم فى تطهير النفس والخلاص وبين الفاظ الكتاب وجرسها وعلاقة هذه الأصوات بعضها ببعض .

وقد رأينا أن فكرة الاعجاز وهي صلب الادبية الفنية فى حياة الكتاب الدينى هي التى دفعت الى التطور ووجهته ونوعت الدرس اللغوى وعمقته اذ الحق أن اللغة كما يقول Sapır أكبر من أن تكون وسيلة لنقل الفكرة بل انها لباس خفى يلتف حول أرواحنا ليعطى صورا من التعبير عنها وهي حينما تؤدى تعبيرا غير عادى نسميها أدبا والفن تعبير ذاتى حتى أننا لانحب أن نشعر أننا مرتبطون بصورة مهما كان قصدنا اليها من قبل والواقع أن امكانيات التعبير الفردى الذاتى غير محدودة واللغة خاصة احدى هذه الامكانيات المتدفقة الحرة ومع ذلك فان هنالك حدودا حول هذه الحرية وبعضا من الدافع لهذه الوسيلة وفى الفنون الكبيرة يوجد التصور الدقيق لهذه الحرية المطلقة وفيها بعض الحواجز الصورية المفروضة عن طريق المادة التى يستعملها الفنان كالنقش والرخام

---

(١) Rose : Hand book of greek mythology pp 5—7

(٢) Ancient India and Indian-ceirlis ation .

الأبيض أو الاسود والبيانو والنغمة وما يشبهها ولكنها مع ذلك لا تحس وكيفما كان الامر فانه يوجد هامش غير محدود لهذا الفراغ الحادث بين الانتفاع التام للفنان بالصورة وبين المادة والفنان يستسلم دائما لسلطان المادة وهو يحاول أن يؤاخي بين طبيعتها الباردة وبين فكرته ثم ان هذه المادة تختفي بدقة لأنه لاشيء في تصور الفنان يدل على أن مادة ما موجودة ونحن باستمرار نسبح معه في هذه الوسيلة الفنية كما يسبح السمك في الماء ناسين وجود محيط غريب وكيفما كان الأمر فما أسرع أن يتخطى الفنان قانون وسيلته دون أن يتبين منذ البداية أن هنالك وسيلة ينبغي أن تطاع . واللغة هي وسيلة الأدب كما أن الرخام والطين وسيلة النحات ومن ثم فان لكل لغة خصائص متميزة ولها أيضا حدود صورية فطرية وامكانيات أدب ما لن تكون أبدا ذات امكانيات أدب آخر والأدب المصوغ من صورة لغة ومادتها يمتاز بظل ونسج يتفق وقوالبه .

والأديب الفنان لايكاد يحس كيف أعيق أو اعين أو ماقدمته له القوالب الفنية من توجيه ممكن حينما تكون المشكلة في ترجمة عمله الأدبي الى لغة أخرى فان طبيعة هذه القوالب تظهر فجأة ثم ان لكل مادة تأثيرا يقرر أو يحس بداهة بالاشارة الى عبقرية الصورة الكامنة في لغته الخاصة وكل أولئك لايستطاع نقله دون أن يفقد منه شيء أو يعدل فيه ومن ثم فان كروتشه كان على حق فيما قاله من أن العمل الأدبي لايستطاع ترجمته ترجمة كاملة تنقل الى القارىء الاجواء الدفينة واللمحات الأصيلة في بناء النص المنقول أو المترجم(١) .

ويبدو أن تلك كانت النظرة العامة أو ما هو منها بسبب عند مفسري النص الديني ولعل هذا يفسر لنا سر تسمية الجاحظ لعملية التأويل في النص بالترجمة تفصيله لرأيه — فيما — كما يفسر لنا ذلك اضطراب المترجمين أوائل العصر العباسي واختلاف مذاهبهم فيها وحرص بعضهم

(1) Sopir : Language : pp. 216—240

على التزام الحرفية أحيانا ظنا منه أن فيها غاية الدقة فى التعبير عن الفكرة المنقولة ... ويبدو أن هذا الاضطراب فى الترجمة مرده الى أن المترجمين لم تتح لهم الفرصة لدراسة اللغة على النحو الذى أشار اليه Sapir [1] ومن ثم اضطربت بهم السبل فلم يوفقوا فيما ترجموه من الآثار الفلسفية والعلمية . ولعل الجاحظ كان أدق منهم تجربة وأصدق رأيا حين طلب الى المترجم أن يكون علمه باللغة المنقولة وزان علمه باللغة المنقول اليها . فاللغة اذن بطبيعة تكوينها ووجودها تشتمل على عنصرين أساسيين هما اللفظة المفردة والتركيب ولعل الهنود كانوا من أوائل اللغويين الذين عنوا باللفظة فى اهمالها واستعمالها وجرسها وائتلاف حروفها وما لهذا كله من أثر فى التجربة الأدبية مقدرين أثر التاريخ فى حياة اللفظة — ذاك تصوير موجز لما امتازت به حضارة قديمة فى البحث اللغوى ، وهو امتياز كان له أثره الواضح فى تطور هذا النوع من الدراسة فى العالم القديم كما كان باعث هذه الدراسة ومنميها فى العصر الحديث ، فهل هذا الامتياز الموجه للنشاط الإنسانى فى هذه الناحية كان له أثره أيضا فى توجيه العرب وتنشيطهم الى تنمية مثل هذه الدراسة عندهم .

هذه هى القضية

لنعد الى ما كتبه مؤرخو العرب حول نشأة النحو العربى ، والدوافع التى حملت على التفكير فيه ، والعوامل التى ساعدت على تدرجه بما يساير تقدم الجماعة الإسلامية ، واتساع معارفها وامتداد عمرانها ، وبما يحققه اتصال الدين بالحياة ، يحتكم فى سيرها ، ويرشدها فى تفاعلها واتصالها بالحضارات المختلفة التى عرفتها هذه الجماعة فى فتوحها الممتدة شرقا وغربا ...

لدينا روايات مختلفة يرويها جملة صاحب الفهرست وابن الأنبارى فى طبقاته وسواهما من الدارسين ، وهى روايات تدل بجملتها على أن الباعث

---

(1) Sapir : Language

الأول . . . لهذه النشأة حماية القرآن من اللحن وهو اعتبار له دلالته التاريخية ، — من ناحية أن القرآن هو التجربة الأدبية المعجزة التى انتهت اليها حياة العربية وما وراءها من اعتبارات اجتماعية اقتضتها طبيعة التوسع فى الفتح الاسلامى وغلبة العربية على ما سواها من اللغات الأخرى وتطلع أهل الأقطار المفتوحة الى البصر باللغة الفاتحة والتمرس بأساليبها وادراك مكامن عبقريتها فى البيان والتعبير — ما وراء ذلك كله فاعتبارات أخرى مكملة للهدف الأول .

وقد يفسر ذلك التدرج التاريخى للبحث النحوى فقد كان القرآن ذاته مصدرا من مصادر هذا التدرج ونصوصه شواهد تفسر بها الظواهر اللغوية فلما استقرت الدراسة النحوية وانقسمت إلى مذاهب كوفية وبصرية أنشأ أصحاب هذه المذاهب يطبقون ما استنبطوا من قواعد على القرآن وظهر فى ذلك كتابان هما معانى القرآن للفراء ومجاز القرآن لأبى عبيده وكلاهما يحاول أن يكون لمذهبه النحوى المكان الأول فى فهم النص وتوجيه قراءاته وتأويل ما فيه من اشارات موحية وابراز أدق ملامح اعجازه ومن هنا كثرت شواهدهم وتعددت بل سمى أبو عبيده بعض خصائص الأسلوب القرآنى بأسمائها منها أسلوب الرد حين يعيد القرآن صدر الآية اذا طالت على الرغم من أن الدراسة البيانية لم تكن قد استقرت أصولها وتحددت معالمها .

ويبدو أن فكرة الاتجاه الى القرآن مصدرا من مصادر اللغة ظلت متحكمة فى البحث اللغوى حتى عصر الخليل الذى أنشأ ينظر الى اللغة نظرة خاصة من نواح ثلاث — من ناحية اللفظة المفردة والجملة وجرس هذه اللفظة وما وراء ذلك كله من تجربة أدبية صميمة وفى سبيل الهدف الأول حاول جهده أن يضبط الفاظ اللغة ضبطا رياضيا . . . واستطاع بهذه الطريقة أن يحدد المستعمل والمهمل وأن يدرك الحس العربى الدقيق فى الاستعمال والاختيار وفى الاهمال والترك وكان كتاب العين الذى نهج فيه هذا المنهج والكتاب لم يصل الينا ولكن يظهر أن كتاب الجمهرة لابن دريد صورة

منه ويظهر أن اشتراك الرجلين فى نوع خاص من الحياة على ما بينهما من فسحة الزمن قد جمع بين روحيهما فى التأليف ... فقد كان الخليل موسيقيا وكان لهذه الموسيقية أثرها فى اختراع العروض وكان ابن دريد موسيقيا كذلك وقد مات وبجانبه آلات الموسيقى والطرب . . . ويظهر أن هذه الموسيقية كانت ذات صلة وثقى بعمله فى اللغة من ناحية هذه الاعتبارات الصوتية التى ينبغى توافرها فى أداء العمل الأدبى وطريقة ابن دريد فى الجمهرة — هى ذات الطريقة التى انتهجها الخليل والتى يصورها الرواة الثقة . والواقع أن الخليل عقلية مخترعة وأن البحث عن سر اختراعه فى هذه الميادين كلها تعوزه الأسانيد التاريخية اذ لا نملك من سلسلة نسبه غير الخليل بن احمد الفراهيدى الأزرى وهى نسبة يلابسها الغموض ولعله نفسه كان يخفى هذه النسبة فلم يمكن أحدا من معرفتها وعلى الرغم من نسبته الى الأزد وهى قبيلة عربية جنوبية — فأنا نشك فى صحتها وربما كانت نسبة ولاء وتلك كانت الطريقة المتبعة — بعد الفتح الاسلامى وقد نبه الى خطر هذه النسبة ابن خلدون وانها قد تخفى وراءها كثيرا من المعالم التاريخية التى لا ينبغى أن يسهو عنها المؤرخ اليقظ ، يضاف الى ذلك أن المنهج الذى اتبعه الخليل منهج أقرب الى الرياضة منه الى البحث الذى يبدأ بالجزئية وينتهى بالكلية . . . بل انه يضع النظرية ويحاول تطبيقها . . . وهو منهج تشير المصادر التى بين أيدينا الى أنه منهج هندى وأنه أقرب ما يكون الى طبيعة عمل Panini ومن سبقه من المفكرين اللغويين فاذا انضم الى ذلك ان البصرة كانت ثغر الهند وان الاتصال المادى بينهما كان قائما — كان هذا كله مثار تفكير عميق فى طبيعة عمل الخليل والبواعث الخفية التى وراءه والأسباب الدافعة التى احفتت به ... بل ان هذا كله يعين على ان نتلقى قضية تأثر النحو العربى بالنحو اليونانى بشىء غير قليل من الاحتياط ان لم ندفع أساس التأثر وننفيه . فان التراث اليونانى حتى هذه الفترة لم يكن قد نفذ الى أعماق النحاة وخالط شعاب تفكيرهم. وكتاب سيبويه — وان ظن بعض الدارسين أن تأثره بالتفكير اليونانى أمر لاريبة فيه — نشك نحن — فى هذا التأثر ونرى أنه فى جملته

صدى قوى لتلمذة صاحبه على الخليل بل فيه كثير من تسجيل الآراء والأفكار التى كان يتلقفها من شيخه واذا كانت هناك بعض المشابهة بين بعض ما ذكره سيبويه فى الكتاب وبعض من التفكير اليونانى فهى مشابهة لاتصل بنا الى القول بالتأثر اذ أنها أفكار عامة منتزعة من واقع الحياة التى يحسها ويألفها الناس والربط بين الزمن والحدث والمتكلم هو أساس المسئولية الأخلاقية التى عاشت عليها الانسانية قبل أن تعقد حياتها وتختلف بأهلها مذاهب الحياة وطرائقها ..."

على أن الباحثين من اللغويين — فى عصرنا الحاضر — يقررون فى يقين جازم أن الهنود كانو أول من عنى بالبحث اللغوى وأن اليونان والروم تأخرت عنايتهما بهذا اللون من الدراسة فيقول Gesperson ص ٢ من كتابه السالف الذكر ماترجمته ان الأساتذة المبكرين فى حياة الدرس اللغوى من ناحية الملاحظة اللغوية والتصنيف كانو نحاة الهنود الأولين ثم أن لغة الترنيمات الدينية كانت قد انتهى بها الأمر الى الاهمال غير أن الدين طلب الى أهله أن لايغيروا من هذه النصوص شيئا وان الرواية الشفوية من جيل الى آخر ينبغى أن تحافظ على قدسية هذه النصوص واحترامها . وقد ساق هذا كله إلى تحليل دقيق للأصوات اللغوية كما كان يحرص القوم على أن يحددوا كيفية نطق هذه الأصوات كما قاد هذ كله الى نوع من التحليل البديع للصور النحوية التى صنفت تصنيفا منظما ووضعت فى اصطلاحات وان كان يبدو فيها بعض التصنع وهذا الأسلوب العام يختلف تماما عن أساليب نحاة الغرب وحينما وصلت مؤلفات Ponini بدأت تحدث اليوم أثرها فى مؤلفاتهم وظهرت فى هذه المؤلفات بعض الاصطلاحات الهندية . غير أن مايذكره جسبرسون عن تأثر نحاة الغرب بالهند وتحديده بالقرن التاسع عشر لايزال قابلا للنظر — فان هذا التأثر أو معرفة النحو الهندى — أمر قديم قدم اتصال الحضارتين الهندية واليونانية أيام فتوح الاسكندر كما اشرنا الى ذلك — فى بحث مضى —

ثم يجىء الطبرى بعد صاحبيه الفراء وأبى عبيدة بقرن فينتصر فى تفسيره للمذهب الكوفى وكثيرا مايذكر أبا عبيده بهذه العبارة " يذكر

بعض مدعى العلم من أهل البصرة " ثم يستقر المذهب البصرى ويذهب الدارسون فى تعليل استقراره وغلبته على المذهب الكوفى مذاهب شتى ولم يقدروا — فيما علموا — ان هذا المذهب صورة أو امتداد لمناهج مستقرة أصيلة فى دراسة النحو عرفتها هذه البيئة وتأثرت بها واستجابت لها فتوفر لانتاجها فى النحو كثير من العمق والاصالة والقوة امده بوسائل الحياة الصحية النامية على مامنبينه فيما بعد على أن هذه الحركة غذاها المعتزلة الذين خالفوا النظام فى قوله بالاعجاز بالصرفة وردوه الى أصول أدبية على نحو ماسبق اليه الجنود من قبل ولم يكن المذهب البصرى فى جملته غير تفسير لظواهر لغوية أصيلة بها تم هذا الاعجاز وتبدت للدارس آثاره شاخصة قوية بل أن الطبرى نفسه وهو من أئمة الكوفيين يتبع — فيما يتصل بمسألة الاعجاز طريقة البصريين فليس كل رأى لغوى أونحوى صالحا لان يؤخذ به فى فهم النص وتوجيه قراءاته بل لابد من حمل النص على أفصح اللهجات وأعمها — وهو هنا يخالف منهج الكوفيين ومن ثم رفض فى اصرار ماكان قد استقر عليه الأمر عند علماء القراءات من أن القراءة الصحيحة يكفى فى اثبات صحتها موافقتها للعربية ولو بوجه بل شرط أن يكون هذا الوجه أفصح اللغات .

ومنذ أواخر القرن الثالث تميزت معالم البحث البلاغى وكان للمعتزلة أثرهم فى هذه الناحية فظهرت أبحاث مستقلة فى الاعجاز امتزجت فيها أبحاث النحو بالبلاغة غير أن واحدا منهم فطن الى عمل النحو فى النظم فقرر أن النظم ائتلاف معانى النحو وعرض فى هذه السبيل الى معنى المعنى وهو اصطلاح لم نشهده عند من سبقه من دارسى الاعجاز ومعلليه . ثم يأتى السكاكى فيتحدث عن النحو فى مقدمة كتابه المفتاح لأنه فى رأيه المدار الأول الذى تدور حوله الفنية الأصيلة التى تتميز بها العربية وهنا يقدر عبد القادر والسكاكى العامل الفردى والجماعى فى بناء الأسلوب الأدبى فعلى قدر مايتوفر لمنتج الأدب من سعة المعرفة ودقة الفهم وحسن الذوق يكون أدبه الذى تبرز فيه خصائص هذه اللغة .

ثم تبدأ مرحلة انفصال هذه الدراسة وتخصصها وظهور الموسوعات النحوية ولكنها كلها تقدر صلة هذه الدراسة بالقرآن وحسبك هذه العبارة التي يوردها الزمخشري صدر كتابه المفصل اذ يقول ومن لم يتق الله في تنزيله فاجترأ على تعاطي تاويله وهو غير معرب ركب عمياء وخبط خبط عشواء وانشأت الأقدار الإسلامية تشارك في العمل النحوي فظهر علماء يمثلون هذه الأقطار الى أن ظهر ابن مالك فأحدث في النحو العربي هزة عنيفة بمنظومته المسماه بالألفية وقد توفر على شرحها أناس كثيرون ولكنها حظيت من عناية المصريين بما لم تحظ به في أي اقليم آخر على أن عمل ابن معط وهو مصري — هو الذي مهد السبيل الى ظهور الفية ابن مالك .

وهنا كان لمصر أثر خاص في تطور الدراسات النحوية — بل ظهرت فيها مدرسة مستقلة لها أعلامها وأئمتها . والواقع أن البيئة المصرية منذ فجر التاريخ بيئة ملهمة تقدر التراث الانساني وتحرص على سلامته ورعايته وتشارك بما لها من جهد في تجويده وتدريج حياته . في هذه البيئة تطورت حياة التفسير الديني قبل الاسلام ووضعت أصول النظريات التي استحكمت في تفسيره . كما بدأ فيها الكتاب الديني ذاته يحتكم في الحياة ويوجهها ويدفع بأهلها الى التماس أسباب الخلود — وذلك شأن كتاب الموتى وفيها أيضا تطورت حياة الأدب اليوناني بعد أن نبت به الحياة في مهده الأول . ولقد صور هذا الجانب تصويرا أدق مايكون الى الصدق [1] Bowra . اذ يقول مانرجمته "ونحن مدينون في العناية بالأدب اليوناني والمحافظة عليه الى العلماء البيزنطيين الذي درسوه ونشروا ماورثوه منه عن القدماء فمن البيزنطيين وصل هذا الأدب الى غرب أوربا عن طريق حماسة حماته ودراسيه من رجال عصر النهضة ونحن في الواقع مدينون لهم بأغلب مانعرفه عن اليونان غير أن عملية النقل والنسخ قد أصابت النص ببعض الاضطراب والفساد وان كان النساخ بعامة ايقاظا مدققين ونحن نقرر بحق أن هذه النصوص التي بين أيدينا ليس بينها وبين النصوص القديمة التي كانت شائعة عند اليونان كبير خلاف .

---

(1) Bowra : Ancient greek litcrature p. 11

ولكن هذا المصدر قد أضيف اليه مصدر آخر — فى العصر الحديث فان بقايا نصوص مكتوبة على أوراق البردى قد كشف عنها البحث العلمى أخيرا فى مصر وبالرغم من أن أغلبها يتألف من وثائق تجارية فان بينهما بقايا لنصوص أدبية خالصة ثم أن الشعر الغنائى الذى أمر به جوستنيان أن يحرق كان لايزال يقرأ — فى القرن الأول الميلادى ونحن مدينون لمصر التى حافظت على نصوص الكتاب الأول من كتب Bacchylides Alcaeus Sappo وهذا المصدر بالرغم من فائدته الجليلة ليس قليلا غير أن مما يؤسف له أنه مجموعة متناثرة يضاف الى ذلك أن أوراق البردى تنقصها عوامل الزمن وهى بذلك تحتاج الى براعة فائقة لبيانها وتفسيرها وهناك فجوات كثيرة لايمكن أن يملأها العلماء والدارسون مهما بلغوا من المهارة والدقة ولا شك أن اكتشافها قد غير من وجهة نظرنا إلى هذا الى الأدب بعامة فقد أضافت شيئا ما الى جملة هذا الأدب كما أنها تدل أن مانعرفه مما فقد منه قليل " .

ذلك هو الدور الذى أدته مصر فى خدمة الأدب الوافد عليها من اليونان والتى أحست أن فيه متاعا للانسانية فحافظت عليه ووعته من عوادى الزمن ولم تقف عنايتها به عند هذا الجانب بل كان هذا الأدب عاملا من عوامل النشاط اللغوى عند نحوى الاسكندرية و Gesperson يصور هذا الدور فى ايجاز ملح فيقول ماترجمته (١)

" . . . وفى العصور المتأخرة كانت المدرسة اللغوية فى الاسكندرية ذات أهمية خاصة فقد كانت موضوعات أبحاثها اللغوية تدور دائما حول تفسير وترجمة الشعراء القدامى الذين كانت لغتهم غالبا غير واضحة لايستطاع فهمها الابشىء من بذل الجهد وسعة الحيلة . " وما وراء ذلك من التصاريف اللغوية ومعانى الكلمات فقد كان يشار اليها اشارات يسيرة أما النظر فى طبيعة اللغة فلم ينل من عنايتهم الا القليل سواء أكان ذلك عند الاسكندريين أم عند الرومان وقد بقى الاشتقاق اللغوى عند أولئك جميعا فى مرحلة الطفولة.

---

(1) Jesperson : Language .. P 20

ولم يقف نشاط البيئة المصرية فى حفظ التراث الانسانى وتقدير الحضارة والعناية بها عند هذا الحد بل ظلت هذه العناية حتى بعد الفتح الاسلامى. . . وليست بنا من حاجة الى ان نتتبع تاريخ هذه العناية بيد ان مما تلزم الاشارة اليه ان هذه البيئة الهمت الشافعى وضع رسالته فى أصول الفقه ، هذه الرسالة التى كانت البداية الباكرة فى تطور حياة التشريع الاسلامى فيما بعد . كما أن هذه البيئة طورت حياة النحو العربى ونمته وكان للمدرسة المصرية — فى هذا المجال أثر ملحوظ — فعمل النحاة والبلاغيون المصريون على تنمية هاتين الدراستين وتوجيههما والاستجابة لما تقضى به حياة البيئة المصرية ويبدو ان سقوط الخلافة فى بغداد ٦٥٦ واكرام مصر وقادة العلماء قد حول مجرى هذه الدراسة ونماها . فقد رأينا اذن من جملة هذه النقول ان النحو العربى فى صوره واشتقاقاته وتحليله للأصوات اللغوية — كما يبدو فى كتاب سيبويه قريب من النحو الهندى ان لم يكن منه بسبب قرابة فيما كثير من الأصالة والقوة تباعد بينه وبين الانحاء الأخرى التى يدعيها أو يفرضها بعض مؤرخى النحو على أن المحققين منهم يرون أن كتاب سيبويه وما نقل فيه عن الخليل لا يبدو فيه اطلاقا تأثر باليونانية ولا استجابة ظاهرة أو خفية لمنطق أرسطو بل يرون أن أول من مزج النحو بالمناطق — الرمانى وان هذا المزج كان موضع انكار منهم .

وربما كان تأثر النحاة بالأصول أوضح من تأثرهم بالمنطق حتى أن بعضهم حصر علل النحو فى أربع وعشرين علة [1] وهى علل بينها وبين العلل الأصولية شبه قوى والقصد منها تعليل الصور النحوية يربطها بأسبابها — وحمل بعضها على بعض على نحو ما كان يصنع الفقهاء والمشرعون . ثم ماذا كان نصيب البيئة المصرية التى سقنا اليك بعض نماذج من إلهامها للعلماء والمفكرين الذين وفدوا عليها فى مختلف فترات التاريخ — فى هذا البناء الضخم ؟ يقتضى الحكم على نوع هذه المشاركة ومقدارها دراسة مسائل النحو تفصيلا متدرجة مع الزمن ومسايرة فى تدرجها العوامل الثقافية والاجتماعية التى وجهت الدراسة

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة ٣٢٦ — ٣٢٧

النحوية فى بيئاتها المتعددة ولا يكاد يسعفنا الزمن ويطاوعنا الجهد ان أردنا هذه الدراسة وانما نكتفى منها بذكر بعض الملامح الخاصة التى تدل على أثر البيئة المصرية فى توجيه هذه الدراسة أو نقد بعض جوانبها .

لقد قسم النحاة الكلمة إلى اسم وفعل وحرف وعرفوا الحرف بانه مادل على معنى فى غيره وجاء ابن النحاس فقال أن الحرف يدل على معنى فى نفسه كبقية أنواع الكلمة الأخرى وأن هذا المعنى لايبرز الاعند التركيب وقد نقل عن السيوطى هذا الرأى فى أول جمع الجوامع وجاء على اثرهما الدكتور عبد الرحمن ايوب فعزا الرأى الى نفسه فى كتابة دراسات نقدية فى النحوية — وهو كما ترى رأى مسبوق .

وأغلب المصريين ممن اشتركت دراساتهم بين الأصول — والنحو — وهو جمع من طبيعته ان يعمق الدرس النحوى وينميه ويصله بالحياة عند تطبيق النصوص التشريعية عليها وقد كتب الأسنوى (١) كتابة الكواكب الدرية فى تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية . وتظل الفكرة النقدية تراود النحاة المصريين فيحسون الحاجة الباحين يعمق درسهم اياه ويتصلون بماضى اصحابه وآرائهم فقد قالوا ان عثمان ابن عمر المشهور بابن الحاجب كتب كتابة الأمالى — وهو مجلد ضخم — فى غاية التحليق بعضها على آيات وبعضها على مواضع من المفصل ومواضع من كافيته وأشياء نثرية ومصنفاته فى غاية الحسن وقد خالف النحاة فى مواضع واورد عليهم اشكالات والزامات مفحمة يعسر الجواب عنها(٢) .

وقد كان ابو حيان — كثير التعصب على ابن مالك بخطئة احيانا ورد عليه بعض آرائه الخاصة فى النحو فجاء على أثر على بن سيف الابيارى المصرى وجمع جزءا فى الرد على أبى حيان وقد انفرد بعض نحاة مصر بأبحاث دقيقة يبدو فيها الربط الدقيق بين الصورة النحوية والمعنى وقد ترك

---

(١) بغية الوعاة ٣٤٢

(٢) المصدر السابق ٣٢٣

السبكي أبحاثاً مفردة تعالج أعمق هذه المسائل وأدقها ونقل عنها السيوطي في الاتقان وعزا نقوله عنها الى أصحابها فنها نيل العلا في العطف بلا والاكتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص وكل وما عليه يدل وبيان الربط في اعتراض الشرط على الشرط والتهدى الى معنى التعدى .

تلك هي الروح المصرية في تناول مسائلها النحو وربطها بالحياة العامة من نواحيها المختلفة واعتدادهم النحو أداة يستفيد منها المشرع والمتناول للنصوص وهذا الاتجاه وان كان يبدو أصيلا في طبيعة البحث النحوى الا أن المصريين استطاعوا أن يستفيدوا منها في استهلاك طاقة النص والاستفادة بها . في دعم الحياة الدينية والأدبية معا ... بعد أن ركد البحث اللغوى ركودا يميل به إلى التكرار والاجترار ... وهنا تبرز شخصيته جديرة بأن نقف عندها وقفة قصيرة . لما امتازت به من تعدد نواحي نشاطها في هذه الميادين كلها تلك هي شخصية ابن هشام التي تمثل المدرسة المصرية في النحو تمثيلا صادقا ويظهر في صنيعها لون من الاصالة والعمق الذى هو في واقع الأمر صدى لهذه البيئة المصرية التي عاش فيها .

ترك ابن هشام كتبا مفردة في مسائل النحو جميعها كقطر الندى وبل الصدى وشذور الذهب وأوضح المسالك وآخرها المغنى . والأبحاث الأولى تعد مقدمة لدراسة مسائل النحو ومحاولة تخريجها مع جمع الآراء المختلفة التي وعاها الزمن ممثلة لمذاهبه في البصرة والكوفة وبغداد ثم لما كان من الأندلس من أثر في هذه المسائل وتوجيهها . ويظهر أن حياته الرتيبة التي قضاها في مصر دارسا ومحققا ثم توسط هذه البيئة بين الشرق من ناحية والغرب أو الأندلس من ناحية أخرى هي التي ساعدته على أن يصل بين هذه المذاهب ويعرضها عرضا يسيرا في صورته دقيقا في مادته وأسلوبه ولقد كان آخر أبحاثه المغنى وهو بحث مفرد يتناول الكلام عن الأداة أو ماهو في حكمها مما يستقيم به الأسلوب الأدبي . وما يحقق لدراسة القدرة على فهمه وتخريجه وإذا كان القدماء قد عنوا بهذا الجانب بين الدرس النحوى فقد كانوا يعوزهم الاستقصاء وجمع الجزئيات المتشابهة أو التي ينتظمها حكم واحد يوسع أفق

الدارس ويجمع عليه شعاب الطريق ويفتح له آفاقا من النظر المتجدد فى طبيعة التركيب الأدبى ويمكنه من معاناة الاستنباط الفقهى — الذى يصله بالحياة العلمية الاسلامية فى اقطارها المتعددة ... ولعل هذه الخاصية هى التى فطن اليها ابن خلدون حتى سمى هذا الكتاب بالديوان .

ولا حاجة بنا أن نعرض لجزئيات هذا الكتاب وطريقته فيه — ودقة تناوله لمسائل النحو واستقصاء الأقوال وترجيح بعضها على بعض — فى تجربة صادقة وعمق نافذ غير أن صنيعه فى كتابه — بعامة — دال على أن النحو العربى فى نشأته وتدرجه حتى عصر الرجل محاولات متجددة مثابرة فى البحث عن مكامن العبقرية الحية فى هذه اللغة .

المراجع العربية

ابن الأنباري ... ... : طبقات النحويين

ابن تيمية ... ... : كتاب الايمان

ابن النديم ... ... : الفهرست

السكاكي ... ... : مفتاح العلوم

السيوطي ... ... : بغية الوعاة

عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز

المراجع الأوروبية

Ancient india and indian civilisation.

Bowra : Ancient greek litt.

Jesperson : Language : Its nature, development and origin.

Sapir Language.

خلاصة البحث

عرضت لنشأة النحو العربى والملابسات التى احتفت بها من دينية واجتماعية وأشرت إلى الطفرة التى أصابت هذه النشأة فطورتها تطورا سريعا، وإلى ما كان من أثر للهند فيها مبينا ما امتازت به الحضارة الهندية عن نظائرها من الحضارات الأخرى فى هذا الجانب ،... وكل أولئك قدمته مهتديا بالطريقة التاريخية التى اتبعها الدارسون فى تأريخ الفكر الإنسانى منذ القرن التاسع عشر ، وظللت أتابع القول فى هذه النشأة حتى توزعت الدراسة النحوية أقطار مختلفة ومنها مصر ، وهنا تظهر لمصر آثار خاصة فى هذا النوع من الدراسة تبدو فيها آثار الربط بين الفكر الإسلامى وبين اللغة كما تبدو فيها أيضا هذه السمة التاريخية فى جميع الآراء ومناقشتها بما يبين عن عبقرية اللغة فى البيان والتعبير .